مجله	العرفان
تاریخ نشر	ربیع الثانی وجمادی الاولی ۱۳۹۱
شماره	۳ و ۴ مجلد ۵۹
شماره مسلسل	
محل نشر	لبنان
زبان	عربی
نویسنده	محمد علی الزعبی
تعداد صفحات	۲۱۸ - ۲۲۴
موضوع	الاسلام سبق العلم
سرفصلها	
کیفیت	
ملاحظات	

الاسلام سبق العلم

بقلم : الدكتور محمد علي الزعبي

خاطب الله جميع البشر بقوله (أنروا ماذا في السموات) ١٠/١٠١ (فانظروا كيف بدأ الخلق) ٢٩/٢٠ ومعلوم ان الله لا يأمرنا بالنظر البصري ، اذ هذه نقطة نلتقي بها مع جميع المخلوقات ، بل يأمر بنظر البصيرة والتقصي ، اذ به فائدتان هما الاستدلال على عظمة الصانع ، من خلال الوقوع على اسرار وقوانين الصنعة، اذ يستحيل على من جهل انظمة الطبيعة انيستخدمها ، والا نظرنا الذين سيطروا على هذا ، كأن لله كتابان : الوحي والطبيعة ، فمن قرأ القرآن متأنيا القائلة (من عرف اسرار الطبيعة اخذ بزمامها).

على هذا ، كأن لله كتابان : الوحي والطبيعة ، فمن قرأ القرآن متأنيا محاولا الفهم لمس بعض مخدرات الطبيعة ، ومن تعمق دراسة الطبيعة سمع صوتها منادية بعظمة الله ، ودراستهما معا تكشف لنا حقيقة خفيت على الذين يذكروننا بكلمة (العلم الناقص شر من الجهل) اذ فاتهم الوحي الحق والعلم الحق،جدولان تدفقا من ينبوع واحد .

اما الذين تعمقوا دراسة الطبيعة وجهلوا الوحي ، او درسوا الوحي وجهلوا دراسة الطبيعة ، فقد فاتتهم هذه الحقيقة .

ومما يحز بنفسي ويشحنها ألما ، ان الذي يجهل احدى هاتين الحقيقتين ، يدلع لسانه على الاخر ويرميه بالقواصم ،

أشهد اني غشيت مجلسا يتصدره شاب إستقى من الطبيعة ما استقاه الطير من المحيط واخذ يدلع على القرآن لسانا عريضا ويتهمه بعرقلة سير العلم،ومماقال:

(العلم يرى عمر العالم ملايين ، ولكن القرآن كعادته يناقض العلم بقوله : (تؤلف ولا تؤلفان) يعني ان عمر الدنيا يستحيل ان يتجاوز ألفي عام).

قال هذا ونظر وجوه الذين حوله ، فنال موافقتهم واعجابهم ، وما ان استأذنته بالكلام، واذن لي، حتى قلت : ارجو ان تخبرني، بأي سورة من القرآن هذه الآية حتى قال : (وهل انا قرأت القرآن ؟ وهل في بيتنا قرآن ؟ هذا ما قالته

معلمتنا الراهبة منذ كنا في الصف الابتدائي الاول ، وكفى ...

ورغم ان الحلقة المحيطة بهذا الطفل الملتحي ذكرتني بقول جبران خليل جبران اذ شاهد في احدى أيام حياته ما شاهدت فانفجر قائلا :

وحولك معشر برؤس نـــاس وأدمغـــة كأدمغـــة الفـــراش

رغم هذا انبرى أحدهم وأثبت لذاك المغرور ان كلمة (تؤلف ولا تؤلفان) ليست قرآنا ولا كلاما نبويا .

★★★

وهنا احمر واصفر واسود وجه الشاب ، وألقى التبعة على (المسير) وأدركه ما ادركه .

الا أن الذي أنزل الوحي وفطر الطبيعة واحد ، وقد اكتفى بالوحي الـذي ناسب الانسان في دور طفولته ، ودور دراسته المتوسطة .

اما وقد بلغ الانسان سن الرشد الفكري ، وأزف وقت الوحي الذي لا وحي بعده ، ولا معدل ومطور له اذ أصبح تطويره من داخله ، فقد آن لهـذا الانسان ان يظفر بوحي من دروس الجامعة اذا قيست بسواها .

انا لا اقول للعاكفين علـى دراسة الفلـك والملاحـة والـذرة والفضـاء الخارجي ... دعوا مختبراتكم وتجاربكم وحسبكم قراءة القرآن ، بل اقول ، وبكل جزم وتحد ، ان القرآن وحده امر بدراسة ما تدرسون ، وسبقكم لمـا تحاولون الظفر به .

القرآن ليس مقتصرا على العقائد والعبادات كما يخيـل لهزيلي الاطـلاع الذين ليستوا جديرين بالجلوس مع ذوي الفكـر الدينـي او الفكـر الطبيعي ، او الذين فاتهم ان الطبيعة ـ رغم ما عرف الانسان من غوامضها ، لا تزال بكرا ، ولا يزال الانسان على رميلات ساحلها يجهل فن العوم والغوص .

اصبح يؤلمني جهلنا وتفريطنا ، وانتظارنا ، حتى لنقول بمناسبة عثور سوانا على بعض النواميس الطبيعية ، لنقول : لقد سبقهم القرآن بآية كذا .

يؤلمني هذا واجب ان نستعيد مركزنا ونعود ائمة ونأخذ زمام الفكر

العالمي الذي أخذناه قرونا ، سبقنا بها العالم كله ، فأقمنا المراصد واثبتنا كروية الارض ، وعرفنا خطوط الطول والعرض وعللنا المد والجزر ، وسبق العلامة ابن بشرون اسحاق نيوتن الذي ألصقنا به اكتشاف الجاذبية، وغمطنا ابن بشرون حقه.

ويؤلمني الذين يقومون مقام الابواق ويرددون كلمة (القرآن حين يحض على العلم ، يقصد علم الدين) .

والهفاه ، من تسرع هؤلاء وتقليدهم . كيف يوفقون بين موقفهم هذا الذي يصدرون منه الحكم جزافا وبين ترديد ثروة الغزالي التي اشتهرت على لسان (ديكارت) ورددها الذين اخذوا يستنشقون رائحة الفلسفة بقولهم : (الشك مقدمة لليقين) .

بل ويؤلمني ان نجزم بتفسير آية ما على ضوء النظريات العلمية لا سيما التي لم يجزم العلم بقطعيتها، لان تعديل النظرية سيدفع المفسر الى تعديل رأيه بالتفسير، وهذا قد يخيل له ان القرآن لا ينسجم مع الواقع العلمي .

يؤلمني هذا كله لاني احب ان تفهم من القرآن ، ما يحفزنا على اكتشاف نواميس الطبيعة ، كما فهم اسلافنا في الوقت الذي كانت به اوروبا تتلهف على رؤية من يعرف بعض حروف الهجاء .

نقرأه بدقة وامعان لنفوز بالحسنتين : بمعرفة اسرار الصنعة نعرف عظمة الصانع ونقف عند حدوده وننقلب انسانا يستريح ويريح ، وبها نودع الفكر الطفولي الذي يرى الارض قائمة على قرن ثور كما كان يرى قدماء المصريين ، ولا نراها قائمة على أرواح القديسين كما كان يراها الاوروبيون قبل عصر نهضتهم

نودع ذاك الفكر، كما ودعه اسلافنا منذ تلوا بامعان الاية الكريمة :

(وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، صنع الله الذي أتقن كل شيء انه خبير بما تعملون) سورة النمل آية ٨٨ .

هذا القرآن هو رائد ، يأمر بالنظر ، وكلما اجتاز الناظرون شوطا من المعرفة، شاهدوه امامهم ينادي :

(فلينظر الانسان الى طعامه ...) ٨ـ٨٠/٢٤ (فلينظر الانسان مم خلق)

٨٦/٥ (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) سورة آل عمران اية ١٣٧ وانظروا هنا قطعا لا تعني الانظر البحث ، كأن الايات تقول : ادرسوا تركيبكم العضوي ، ادرسوا طعامكم ، من اي المواد مركب ؟ ادرسوا تاريخ الامم الخالية ، وانظروا اثارها واعرفوا السنن (الطرق) التي كانت سبب ارتفاعها لتسلكوها وترتفعوا بها والطرق التي كانت سبب تدميرها وزوالها ، لتتنكبوها كيلا تزولوا كما زالوا .

وهكذا ، انزل الله القرآن دروسا جامعية ومصباحا للجامعيين والعاكفين واساطين الاختصاص .

فاذا ما جهل اشباه المتعلمين هذه الحقيقة ، واخذوا ينعون على الاسلام ويرمونه ليس بالقصور بل بمضادة القطعيات، فان موقفهم يذكرني بقوارص الجاحظ :

قال شخص للجاحظ :

ـ يا أبا عثمان ان فلانا ينال منك

ـ دعوه لو رددنا عليه لفهم خطأه وصار انسانا

اما القرآن الكريم ، فلا يرد على عدوي الافكار الفطيرة (دينا وطبيعة) ، بل يدعوهم بالتي هي أحسن ، ويذكرهم بكلمة (ديكارت) :

كل الذي تعلمته في الحياة هو انني لا أدري شيئا .

ولا عجب فكثرة العلم ايمان وتواضع ، وقلته طيش واضطراب وألسنة عريضة . ولو حفظ هؤلاء قول الامام الشافعي :

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي

واذا ما ازددت علما زادني علما بجهلي

لاستراحوا

هذا ، وقد آن للذين تناولوا قطرة ماء من مستنقع ناء عن المحيط ، فأخذوا ينالون منه .

آن لهم ان يتعلموا التواضع من ديكارت والشافعي كيلا يقيموا انفسهم مقام الذي نال من الجاحظ .

على أن تشبيه الاسلام بالجامعة ، لا يعني التفاضل بين سادتنا الرسل ، صلاة الله عليهم وسلامه، بل يعني بيان حكمة التطور ، اذ هذه كتب الوحي بين يدينا ، ويستطيع القارىء القيام بدور مقارنة تفضي لهذه النتيجة .

جامعة ، بكل ما بهذه الكلمة من معنى، اذ انفردت بالاعتراف بان جميع سكان الارض، تعرضوا لأشعة شمس الوحي، ثم غزاهم مرض الطوارىء، واصبح بقوة قانون الوراثة ، وسيطرة الاستمرار مستحكما ، واصبحنا ، لعدم التعمق بدراسة القرآن ، نخالهم محرومين ، ناسين ان عدل الله يتنافى مع ما تخيلنا .

لهذه الجامعة خصائص ، من ابرزها الحض على دراسة الطبيعة ، وتوجيه ثمار دراستها لنفع الانسان . ولم تفت هذه النقطة الذين تبتلوا للعلم لوجه العلم، لكن بعض قدماء اليهود ، ومعاصرينا منهم تقذوا وصايا التلمود والبروتوكولات ، ومقررات محفل الشرق الاكبر النوراني ، القائل : (لا تنتقدوا انظمة ـ الجوى ـ بل فسروها تفسيرا يعكس مفاهيمها).

لذا رأينا بعض اليهود ، قديما يقول : رسالة محمد للعرب وحدهم ، ورأينا الذين اتقنوا الهدم التدريجي لانكار الرسالة الاسلامية ، ومهدوا لهدم مبادىء الدين يعطفون عليها كلمة :

(شريعة الاسلام جامدة ميتة) .

ومهدوا لطمس ميزة القرآن الحاضة على العلم ، بكلمة :

(كلمة العلم في القرآن تعني علم الدين) .

هذا بعض ما قالوا ، (وما تخفي صدورهم اكبر) ، اما نحن فقد رضينا الحياة ابواقا ، ورددنا هذه المفتريات في كثير من الكتب العربية ، ككتب انطون سعاده مثلا .

★★★

سبحان الله ، كيف نردد المفتريات دون نقاش ، وكيف نزعم ان كلمة العلم في

القرآن تعني علم الدين واذا كان الامر كذلك، فهل قصد رسول الله بقوله: (اطلبوا العلم ولو بالصين) هل قصد طلب علم الدين في الصين ؟ وهل كان الصين يوما ما محجا يهبطه طلاب علم الدين ؟

في القرآن آية واحدة حول الوضوء وبضع آيات حول الصلاة وسواها من اركان الاسلام ، اما آيات الحض على دراسة الطبيعة ، فأقف تجاه كثرتها واجما حسيرا • ولذا اكتفي بقطرة من بحرها مشفوعة بتعليق خفيف ، متمنيا على القارىء ان يدرس القرآن بنفسه ثم يتحدث حوله •

١ ــ كروية الارض

(وجعلنا في الارض رواسي ان تميد بهم) سورة الانبياء آية ٣١ •

الا ترون تشبيه الارض بخيمة ، وتشبيه الجبال باوتاد او رواسي ؟ أليس التحرك يستلزم ما يقيه السقوط •

الينابيع ، او المياه الجوفية

(وانزلنا من السماء ماء بقدر ، فاسكناه في الارض) سورة ، المؤمنون آية ١٨ •

الجاذبية

(خلق السموات بغير عمد ترونها) سورة لقمان آية ١٠ •

وهناك آيات بوجوب دراسة الانسان والحيوان والنبات والفلك والطير •• وحسبنا ان القرآن رفع الذين اوتوا العلم درجات ، وقطع الطريق على الذين إحاط بهم الغرور قائلا (وفوق كل ذي علم عليم) سورة يوسف ٦٧ •

★★★

كاني اسمع بعض القراء يقول :

جزمت ان للعالم خالقا ، دون ذكر المقدمات التي تفرض النتيجة السليمة ، وامام هؤلاء اضع هذا النص الديكارتي :

(اني احمل فكرة الكمال ، فكان بالاحرى ان اكمل نفسي من النواقص ان

كنت خالقا نفسي وان اجعل عيني تبصر الى مسافات شاسعة ، واذني تسمع من مسافات بعيدة ، وهكذا بقية اعضائي .

ولما كانت هذه الحواس محدودة القابلية ، وليس لي ان اعدل فيها ، وان اكملها كيفما اريد ، اذن خالقها غيري . كما انه ليس خالقي انسانا اخر يشبهني ، لانه ناقص مثلي ، فلا بد ان هناك كاملا وهو الله تعالى ، قد خلق كل ما نشاهده حسب قوانين ثابتة ونظم دقيقة ، تحار فيها الالباب) (١) .

★★★

هذا الخالق الكامل ، يعرفه البحاثون من خلال بحوثهم ، بل يرونه من خلال النظم الثابتة التي تسود الطبيعة ، ويعرفونه جديرا بالعبادة .

مثلا تعجب ابو العلاء من الطبيب الذي لا يعرف الله ، قائلا :

عجبي للطبيب يكفر بالله ... من بعد درسه التشريحا ؟

الكون المنظم يدل على منظمه ، الواحد ، اذ لو كان اثنين لاصبح كلاهما عاجزا بمفرده ، والعجز يتنافى مع القدرة .

لا وجود للصدفة تجاه هذه النواميس المنظمة .

« قد يقول ان الاله (ب) خلق الاله (أ) فمن خلق (ب) ؟

والسؤال هنا مكرر الى ما لا نهاية ، وعلينا ان لا ننسى ان تكرار الواحد دليل على عدم استغنائنا عن وحدانيته ، اذ لو كان معدوما لما اوجد ، ولو كان اثنين فلا بلا من التساؤل ، ان كان احدهما تام القدرة والاخر ناقصها ، اكتفينا بالكامل ، وان كان الاثنان تامي القدرة فلا حاجة لاحدهما ، وان كان الاثنان ناقصي القدرة فالاثنان لا يصلحان لهذا النظام . » (٢)

بيروت . محمد علي الزعبي

١ و ٢ – يوسف مروة : (العلوم الطبيعية في القرآن) .

١٦٦٣٥